المبحث الرابع

مجاهدات الحكيم وسلوكه

أن كمالات الله تعالى لاتتناهى، وعظمته لاتطاول، وعطاءه للخلق لايتوقف ولاينقطع ورحمته بهم وسعت كل شئ..

ولقد جاءت رسالة الله تعالى إلى خلقه، ونزل وحيه إلى عباده، وفيه من كماله وعظمته ورحمته، مايطبهم، ويصلح شأنهم، ويرتقى بهم إلى مافيه خيرهم.. الأمر الذى يؤدى فطريا إلى أن تتحرك نفس الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات، وأن تختلط فيها بواعث الرغبة بعوامل الرهبة، وأن تمتزج فيها دوافع الخوف وموجبات الرجاء.. ولاتلبث النفس متى تحركت هذه الحركة الصادقة، ونهضت فيها هذه النوازع الإيجابية إلا أن تحبس جهدها على الحق، وتوقف طاقاتها على الخير، وتجند إمكاناتها للطاعة، وتألف طريقها إلى المعروف. ومع تساوى المسلمين فى العقيدة، وإقامة الفرائض، فإنهم يتفاضلون حسب استعدادهم وجهادهم فى تزكية أرواحهم، وتحليتها بالفضائل، وعلو الهمة فى طلب الله، ومحبته تعالى وإثاره على ما سواه.

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1]..

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية رقم ٢٣.

(٢) سورة فاطر، الآية رقم ٣٢.

والحكيم الترمذى قد نشأ فى بيت علم، والنشأة العلمية التى نشئها الحكيم كانت امتدادا لجهود أبيه من قبله، فأبوه على بن الحسن بن هارون الترمذى المحدث الذى حدث ببغداد .. ولاشك أن نشأة الحكيم كانت ذات تأثير عليه فى الإقبال على الدراسة وتفرغه لها، والاهتمام بها دون غيرها منذ حداثته[١]..

ولقد ظل الحكيم منذ نعومة أظفاره يدرس علم الآثار وعلمى الرأى، وهذان العلمان من أسنى العلوم التى كانت تطلب فى عصره، بحيث يكفى الواحد منهما لنسبة صاحبه إلى سؤدد العلم وشرفه.. ويستحسن أن لانغفل عن أن هناك أثرا صادف لدى الحكيم الترمذى استعدادا. فظل ينمو وينمو حتى ظهر أخيراً فى تحوله الصوفى، هذا الأثر هو ما لاحظه الترمذى نفسه فى تفريقه بين أهل الرأى وأهل الحديث، من حيث الأخلاق والسلوك[٢].. يقول فى «المسائل المكنونة» تحت عنوان«أصحاب الفقه وأهل الحديث»: «وأهل الحديث كثر تردد هذه الأخبار على أسماعهم فخلصت إلى النفوس منهم. شاءت أو أبت، فذللتها وقمعتها، وإن لم يتصدوا لها ،فرئى أثر ذلك وبركته عليهم»[٣]..

«فلين القلب، ورقة الفؤاد، وخشوع النفس، وخضوع الجوارح، من المميزات التى امتاز بها أهل الحديث على وجه العموم، وهى فى نفس الوقت من الاستعدادات التى تهيئ المرء للسلوك السليم، وقد كان أبوه من المحدثين، فلا غرو أن تنطبع هذه الصفات فى نفس ولده فتؤثر فيه وتجعله بدوره على استعداد كاف للسلوك السوى عندما تظهر دواعيه، وتتهيأ أسبابه.

«ولم يكن الحكيم ممن تكفيه دراسة علم الرأى وعلم الآثار. بل لعله كان لايجد فيهما الذى كان يتشوق إليه بشوق غالب، ونفس طلعة، لاتهدأ ولا تستقر، وظل

---

(١) انظر الدكتور بركة«الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص ١٨٢.

(٢) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى وتطوره فى الولاية» جـ١، ص ١٨٢ بتقديم وتأخير فى العبارة.

(٣) الترمذى «المسائل المكنونة» ص٤٨ بتحقيق الدكتور الجيوشى، ط دار التراث.

شعوره بهذا النقص كامنًا فى أعماق نفسه، يوجهه من حيث لايدرى فى وجهة أخرى، لم يكن يفكر فيها، ولايلتفت إليها، بل كان مايتميز به كل منهما عن الآخر عاملا من عوامل الصراع الخفى فى نفس الحكيم الترمذى، ولم يجد هذا الشعور وسيلة إلى الظهور والتعبير عن نفسه إلا بعد أن بلغ الشيخ السابعة والعشرين من عمره، وألقى عليه حرص الخروج إلى بيت الله الحرام»[١].

فأخذ أهبته للحج، وتابع رحلته إلى مكة، وقضى هناك فترة فى رحاب الكعبة، مجاورا يدعو الله، ويتضرع إليه ويناجيه. وقد وصف لنا تلك اللحظات الحاسمة فى رسالته «بدوشأن أبى عبدالله» فقال: «فقدمت مكة فى بقية شعبان رزقنى الله المقام بها إلى وقت الحج، وفتح لى باب الدعاء عند الملتزم، فى كل ليلة سحرا، ووقع على قلبى تصحيح التوبة، والخروج مما دق وجل، وحججت، فرجعت وقد أصبت قلبى، وسألته عند الملتزم فى تلك الأوقات أن يصلحنى، ويزهدنى فى الدنيا، ويرزقنى حفظ كتابه، وكنت لا أهتدى لشئ من الحاجات غير هذا، فرجعت وقد ألقى على حرص التحفظ للقرآن فى طريقى، فأخذت صدرا منه فى الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسر الله على ذلك بمنه، حتى فرغت منه، فأقامنى ذلك بالليل فكنت لا أمل من قراءته حتى أنه كان ليقيمنى ذلك إلى الصباح ووجدت حلاوته»[٢].

ومن هذا النص يكشف الحكيم الترمذى عن المرحلة الثانية من مراحل مجهوداته وسلوكه، فقد أتقن فى المرحلة الأولى علم الفقه والحديث، واستكمل مايحتاج إليه من الأخذ عن المحدثين فى ترمذ والعراق والبصرة والكوفة.

ويبدو أن رحلة الحج هذه كانت بمثابة نقطة تحول فى حياة الحكيم الفكرية والروحية. حيث بدأ مرحلة الرياضة والمجاهدة والسعى الدائب إلى مايقربه إلى الله،

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» ص ١٨٢.

(٢) الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص ١٤.

ويدنيه من رضاه.. لأنه وجد فى رحاب البيت الحرام متسعًا من الوقت، وصفواً من الزمن، يعود فيه إلى نفسه ليكننه أسرارها، ويسبر أغوارها، فتنفست انفعالات كانت تعتلج فى نفسه وبرزت من أعماقه أحاسيس، ملكت عليه الشعور، فاهتدى أول ما اهتدى إلى الدعاء.

والدعاء هو مخ العبادة، وله منزلة كبيرة عند الله، لأنه الحبل الذى يتعلق به الإنسان ليصله بربه، ويكون دليل القرب منه جل شأنه، ومنزلة الدعاء من العبادة كمنزلة الرأس من الجسد، فهو دعامة أساسية فى العبادة، والدعاء تعبير طبيعى عن إحساس نفسى وشعور حى لدى الإنسان الذى يدرك وجود حقيقتين فى حياته: «الله والإنسان» ويدرك النسبة الحقيقية بين الوجودين: وجود الله الذى هو مصدر الغنى والكمال والإفاضة فى هذا العالم، ووجود الإنسان الذى هو وعاء الفقر والحاجة والمسكنة، المتقوم بالإفاضة، والعطاء المستمر..

والحكيم الترمذى بعد أن فتح له باب الدعاء، وقع على قلبه «تصحيح التوبة»، وتلك مرحلة من مراحل المجاهدات رأى الحكيم أنه لابد منها كى يخلص لله. لأن التوبة سبيل مهيئ لإصلاح الفرد، وتشد الإنسان إلى الصلاح شدا، وتبعث فيه دائماً أمل الاستقامة، وتؤهله للخير والفضيلة.

وبعد فتح باب الدعاء، وتصحيح التوبة، وجد الترمذى نفسه يتجه نحو التنسك والسير فى طريقه، بعدما حصّل القسط الوافى من ألوان العلوم والمعارف الأخرى وقد ألقى بثقله إلى حفظ القرآن الكريم وهو فى طريق عودته، وتم له حفظه جميعه بعد وصوله إلى وطنه «ترمذ» وأخذ القرآن من إحساسه وقلبه ووجدانه كل مأخذ، حتى كان يقطع الليل كله يتلوه إلى مطلع الفجر، وحتى وجد فى قلبه حلاوته، وانشرح صدره لنوره»[١].

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص١٢.

لقد تغير إذن مركز الاهتمام، وانتقل انتقالا كليا، فلم يعد تهمه المعرفة العقلية لأنه قد حصّل منها ماكان كافيا لمثله، ولكن الذى أصبح يهمه الآن ماهو مستكن وراء هذه المعرفة مما لايدرك إلا بالذوق، ومما يشبع كلتا العاطفتين: عاطفته الجياشة نحو الله، ونحو معرفته، لذلك أخذ فى تتبع محامد الرب تبارك اسمه[١]. ويقول الحكيم فى ذلك: «فأخذت أتتبع من الكتب محامد الرب، تبارك اسمه، والتقاط محاسن الكلام، من طريق العظات، ومما يستعان به على أمر الآخرة»[٢].

لكن هذه النقلة - التى لم يكن الترمذى يستعد لها - جعلته يحس بما يشبه الحيرة، فقد انقطع فى هذا الطور الجديد عن مألوفه، واتجه اتجاها لامعرفة له به وترك غاية كانت واضحة بينة، إلى غاية لم يتضح له شئ منها بعد، فهو ينظر ليرى ماأمامه فلا يدركه، ولايعرف كيف يتوافق معه[٣].

ولم تصرفه هذه الحيرة عما هو فيه، بل زادته تشبثا واستمساكا، لأن عمق الحب الذى جعله يندفع إلى تتبع محامد الرب، ظل كما هو مسيطرا عليه، يدفعه إلى الثبات والتغلب على هذه الحيرة التى وقع فيها، حتى أصبح كالمسير المستسلم لما يراد له، دون أن يعرف ماذا يراد له. ولم يكن له ملجأ حينئذ إلا الإقبال على نواحى العبادة من الصوم والصلاة[٤]. ومن كلام الحكيم قوله: «واسترشد فى البلاد فلا أجد من يرشدنى الطريق، أو يعظنى بشئ أتقوى به، وأنا كالمتحير لا أدرى أى شئ يراد لى إلا أنى أخذت فى الصوم والصلاة»[٥].

يقول الدكتور بركة: لكن الحال ظل هو الحال، لأنه لم يكن قد عرف من قبل غير ماكان يدرسه فى علم الآثار والرأى. وهو ذو منهج يختلف عن المنهج الذى ينبغى

---

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص١٨٦.

(٢) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص١٥، من كتاب ختم الأولياء.

(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١، ص١٨٦.

(٤) المصدر السابق ص١٨٦.

(٥) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص١٥... ط بيروت.

اتباعه فى مثل حاله الجديدة، ولم يكن لديه من معرفته شئ، فأقبل عليه ولم يعرف منهجه أو أسلوبه أو طريقته بعد[1].

ولا شك أن حيرة الحكيم، قاسى منها الكثير، وكان لايعرف إلى أى اتجاه يسير، ولقد حدث مثل ذلك للغزالى حيث لم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة، قريباً من ستة أشهر، وانتهى الأمر فى هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه، وغمر قلبه حزن أثر على صحته فالتجأ إلى الله الذى يجيب المضطر الذى لاحيلة له، فأجابه الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب..[2].

فالترمذى مر بفترة قلقة أشبه ماتكون بالحيرة التى تنتاب السالك فى محاولاته اكتشاف النفس، أو الاطمئنان إلى طريق الهدى، فهام على وجهه يبحث عن مرشد أو واعظ يأخذ بيده، فلا يجد من يوجه طريقه، ويسدد خطاه. ويبدو أن الخوف والقلق قد اشتد به خلال هذه الفترة الحرجة، ولم يجد خيرا من الصلاة والصوم.. ولم يزل الحكيم على تلك الحال حتى اهتدى إلى سماع أقوال العارفين وأهل المعرفة، وأثناء بحثه عن معين على الطريق وقع فى يديه كتاب «الأنطاكى». ويبدو أنه يقصد كتاب «دواء القلوب» لأحمد بن عاصم الأنطاكى، فقد أقبل على قراءته، واهتدى بواسطته إلى طريق رياضة النفس[3].

واستقبل بذلك مرحلة من مراحل رياضة النفس التى بدأ فيها تجاربه الروحية الأولى وأخذ فيها يلمس آثار هذه الرياضة ونتائجها فيما يشعر به من تقدمه الروحى، فشجعه ذلك، وأخذ يضع لنفسه منهجًا صارمًا دفعه إلى المضى فيه قدمًا ماآنسه من صفاء قلبه، وشفافية فى روحه.[4].

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص١٨٧.

(٢) الدكتور عبدالحليم محمود «المنقذ من الضلال» ص٣٥، ط دار الكتاب اللبنانى..

(٣) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص ١٢ ، ١٣.

(٤) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد» ص ١٣.

ويصف الحكيم هذه التجارب وآثارها فيقول:«فلم أزل كذلك حتى وقع فى مسامعى كلام أهل المعرفة، ووقع إلى كتاب الأنطاكى فنظرت فيه، فاهتديت لشئ من رياضة النفس، فأخذت فيها، فأعاننى الله، وألهمت منع الشهوات نفسى، حتى صرت كأنى أعلم على قلبى الشئ بعد الشئ، حتى ربما كنت أمنع نفسى الماء البارد، وأتورع عن شرب ماء الأنهار، فأقول: لعل هذا الماء جرى فى موضع بغير حق، فكنت أشرب من البير أو من الوادى الكبير»[١].

تجارب روحية يمضى فيها الحكيم الترمذى، ذات منهج صارم، حتى كان يمتنع عن شرب الماء البارد ليكون بعيدا عن رفاهية النفس، ويتورع عن شرب ماء الأنهار خشية أن يكون قد جرى فى موضع بغير حق.

«ولاشك أن هذه المغالاة إنما كانت تحدث من الحكيم فى أوقات استغراقه، ووقوعه تحت سيطرة العاطفة الغلابة، التى تقهره على التورع والمبالغة فيه، لكى يتحقق منه وله، ماكان طلبه أثناء إقامته بمكة»(٢).

ويذكر الحكيم فى كتابه «بدو شأن أبى عبدالله» مايمكن أن نعتبره مرحلة أخرى متقدمة فى مرحلة المجاهدات والسلوك، فيقول: «ووقع على حب الخلوة فى المنزل، والخروج إلى الصحراء، فكنت أطوف فى تلك الخربات والنواويس[٣] حول الكورة، فلم يزل ذلك دأبى، وطلبت أصحاب صدق يعينونى على ذلك ، فعز على، فاعتصمت بهذه الخربات والخلوات»[٤].

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص١٦.

(٢) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» ص جـ ١ ، ص ١٨٨.

(٣) النواويس مفردها ناووس. ولها معنيان : ١ ـ متاع على هيئة صندوق من حجر أو خشب أو معدن يوضع فيه الموتى. ٢ ـ الخلاء أو المكان الذى توجد فيه مقابر الأموات. والمعنى الثانى هو المراد فى هذا الموطن «ختم الولاية» ص ١٥ ـ ١٦ الدكتور عثمان يحيى.

(٤) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص١٦.

وقد بدا الترمذى فى هذه المرحلة ملتزما بالعزلة والخلوات، فقد كان يخلو بمنزلة مرة، أو يخرج إلى الصحراء أخرى، أويطوف بالخربات ومقابر الأموات ثالثة.. وإذا كانت هذه العزلة والخلوة قد حببت إليه وأصبحت من مظاهر رياضته النفسية، فإنه لم يمتنع امتناعا كليا عن الاختلاط بالأصحاب إلا لفقدانه منهم أصحاب الصدق الذين يعينونه على ما هو فيه، وذلك لأنه قد أصبح مركز الحس والوجدان على هذا الاتجاه، بحيث لايمكن أن يلتفت إلى غيره، وكل مايشغله أو يصرف انتباهه عنه، أو يقطع استغراقه فيه يصبح كريها ثقيلا غير محتمل. وفى مثل هذه الحال لايمكن له أن يختلط إلا بمن يكون له نفس الاتجاه، المشتغل بنفس مايشغله، حتى يجد فيه عونا على طريقه، فإذا لم يجد كان النفور من الناس والاختلاط بهم شعوراً طبيعياً، وكان اللجوء إلى العزلة والخلوة إجراءً طبيعياً أيضا، يعتصم بهما عما يقطع عليه سعيه وجده واجتهاده[1].

ويذكر الدكتور بركة أن الحكيم قد بيِّن هذا المعنى فى رسالته التى كتبها إلى محمد بن الفضل البلخى، حيث جاء فيها : «وأما ماذكرت من شأن الاستخفاف بالأخوان، وسقوط من فعل ذلك عن الله تعالى، فأين ذلك الأخ؟ أنا فى طلبه عطشان، ومكانه منى على العاتقين، وأشفار العينين.

وإنما يكون أخوك من سقياهما من مشرب واحد، ومرعاهما فى مرتع واحد، ومركبهما واحد، من حظ واحد ، إلى رب واحد.

فأما من تباينا فى هذه الصفات فلا يأتلفان إلا على التداوى والتعايش. وأخوان المداراة والمعايشة كانوا فى السلف الصالح الذين خلوا يتعايشون ويتأخذون على سلامة الصدور، وسخاوة الأنفس.

فأما اليوم فقد تبدل بالسلامة خبا ودهاء، وبسخاوة الأنفس طمعا وبخلا، فرد السلام على مثل هؤلاء ومناولة اليد، والكشر فى وجوههم كثير كثير والاشتغال بهم بطالة.

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٨٩.

إنما يقتضيك الله مـن أمـورهم أن ترحمهم رحمة يسـلموا منك قلبًا ويداً ولسـانًا وفعـلاً[1].

فالمسألة ليست استخفافا بالإخوان، ولا استكباراً على الناس.. وإنما هى مسألة مشارب تتفق، واتجاهات تأتلف، فإذا اتفقت المشارب أمكن الاجتماع، وإذا اختلفت صعب الاجتماع إلا على أساس من التعايش والمداراة.

وقد كان يمكن ذلك لو كان الناس على ماكان عليه السلف من سلامة الصدر، وسخاوة النفوس. أما وقد فسدت النفوس وضاقت الصدور، فقد أصبح الاجتماع على التعايش والمداراة أمراً صعبًا كذلك. وإذا اشتغل الإنسان بذلك أضاع وقته وجهده وحاله مع الله. وإنما يكفيه فى ذلك مايكون بينه وبين الله فى شأنهم، وهو أن ينظر إليهم نظرة رحمة بحيث لاينالهم منه أذى لا بالفعل ، ولا بالقول ولا بالضمير[2].

على أنه ينبغى أن لانأخذ هذا العكوف على الخلوة والعزلة من مظهرها الخارجى فحسب ونصفها بالسلبية المطلقة، لأنه فى الوقت الذى يبدو فيه هادئا بعيدا عن كل نشاط ظاهر، عقلى أو ذهنى أو حتى عضلى، يكون نشاطه الباطنى فى أشد درجاته فاعلية وإيجابية بحيث تكون له السيطرة الكاملة على كل ملكاته، بل وعلى حواسه.. فهو يوقف نشاطه الظاهرى ليعطى المجال لنشاطه الباطنى، ومايزال مستغرقا فى تجربته إلى أن تتمكن عاطفته من السيطرة على مشاعره الظاهرة، وتنفتح عين بصيرته، فتجلو له من شئونه ما لم يكن يراه بعين بصره، وتنشط هذه الحاسة التى يسميها بعض الباحثين «الحاسة الكونية» للاتجاه به إلى خالقها، وتنطلق إرادته الروحية قوية ثابتة لتسلك به طريق الصفاء الروحى، ويكون حينئذ قد بدأ

(١) الترمذى «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» تحقيق الدكتور بركة مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة عدد سنة ١٤٠١ هـ، ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٢) راجع الدكتور بركة «مقدمة خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨٧ـ ٢٨٨ مجلة كلية أصول الدين.

يسير فى طريقه نحو إشباع هذه العاطفة الإنسانية الكمينة المتجهة بأشواقها الغلابة نحو الله، ونحو معرفته[1].

ولا يمكن إذن أن يدعى على مثل هذه العزلة أنها عمل من أعمال البطالة، مغلفة تحت غلاف دينى، لأنها ـ على النقيض من ذلك تماما ـ أشق معاناة، وأصعب مراسا من الأعمال الأخرى التى يستعان عليها بالاندماج بين الجماعات من أخوة الدين. وقد أدرك الحكيم ذلك، ولم يجد من يعينه على حاله، فاعتصم بالخربات والخلوات، يعانى فيها وحيدا جهده الصامت العنيف[2]..

ولقد ذكر الغزالى : أنه آثر العزلة، حرصا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر، وكان فى أثناء هذه الخلوات تنكشف له أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها[3].

وذكر الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال»: أنه من أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات. حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد.. ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق»[4].

والحكيم الترمذى فى مواضع من رسائله يذكر أن المكاشفات والمشاهدات هى بمثابة محلات للراحة، يستجم فيها السالك، ويستروح من شدة مايعانيه، ويتزود لاستئناف سيره[5].

والمكاشفات : مكاشفات العيون بالأبصار، ومكاشفات القلوب بالاتصال،

---

(١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٠.

(٣) الغزالى «المنقذ من الضلال» ص١٢٦، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود، ط دار الكتاب اللبنانى.

(٤) الغزالى «المصدر السابق» ص ١٢٧.

(٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٠.

والمكاشفة: حضور القلب بنعت البيان، فيكشف له مايستتر على الفهم[1].. فالقلب قد أيقن أن مايتكشف له هو الحق، وأنه واضح له بلا افتقار إلى بيان أو تأمل أو برهان[2].

أما المشاهدات فهى الدرجة العليا، وهى رؤية الحق ببصر القلب من غير شبهة كأنه رآه بالعين.. وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال. فالأول منها : الأصاغر، وهم المريدون. يشاهدون الأشياء بعين العبر، ويشاهدونها بأعين الفكر. والثانى: الأوساط. وهؤلاء قال فيهم الخزاز: الخلق فى قبضة الحق وفى ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لايبقى فى سره ولا فى همه غير الله تعالى .. والثالث: ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكى: أن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شئ، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه، ولهم، وبه[3].

ومن هذه المكاشفات والمشاهدات ماقصه الحكيم فى «بدو شأن أبى عبدالله» من الرؤى، فقد ذكر رؤيتين اثنتين رآهما الحكيم بنفسه فيما يرى النائم، وماعدا ذلك من الرؤى التى قصها علينا فقد رأتها له زوجه، أو رآها له آخرون، وهو يذكر هذه الرؤى، ويعول عليها جميعًا بنفس الدرجة التى يعول بها على رؤياه الشخصية[4].

أما الرؤيتان اللتان رآهما بنفسه، فالأولى منهما تشير إلى درجة صلته بالرسول ﷺ. والثانية تشير إلى علاقته بربه.. وجاء فى الأولى قوله : «فبينما أنا على هذه الحال، إذ رأيت فيما يرى النائم كأنى أرى الرسول الله ﷺ دخل المسجد الجامع فى كورتنا، فأدخل على أثره، فألزم اقتفاء أثره. فما زال يمشى حتى دخل

(١) الدكتور عبدالمنعم حفنى «معجم مصطلحات الصوفية » ص ٢٤٩، ط دار المسيرة ببيروت.

(٢) الدكتور محمد حسن الشرقاوى «ألفاظ الصوفية ومعانيها» ص ٢٨٠، ط دار المعرفة بالاسكندرية.

(٣) الدكتور عبدالمنعم حفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص ٢٤٤، ط ، دار المسيرة ببيروت.

(٤) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ١٩٠.

المقصورة وأنا على أثره، ومن القرب منه، حتى كنت أكاد التزق بظهره، وأضع خطاى على ذلك الموضع الذى يخطو عليه حتى دخلت المقصورة، فرقى المنبر، فرقيت على أثره، كلما رقى درجة رقيت على أثره، حتى إذا استوى على أعلى درجة قعد عليها، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه، عند قدميه، ويمينى إلى وجهه، ووجهى إلى الأبواب التى تلى السوق، وشمالى إلى الناس، فانتبهت من منامى وأنا على تلك الحال» [١].

وجاء فى الرؤية الثانية قوله : «ثم من بعد ذلك بمدة يسيرة، بينما أنا ذات ليلة أصلى، فثقلت، فوضعت رأسى فى مصلاى، جنب فراشى، إذ رأيت صحراء عظيمة لا أدرى أى مكان هو، فأرى مجلسا عظيما، وصدرا مهيئا لذلك المجلس، وحجلة مضروبة، لا أقدر على صفة تلك الثياب، وذلك الستر، فكأنه يقال لى : أنه يذهب بك إلى ربك، فأدخل تلك الحجب. فلا أرى شخصا، ولا صورة . إلا أنه وقع فى قلبى أنى لما دخلت وقع على الفزع فى ذلك الحجاب، فأيقنت فى منامى بالوقوف بين يديه، فما لبثت أن رأيت نفس خارجا من الحجب، بالقرب من باب الحجاب، واقفا وأنا أقول: عفا عنى، وأجد نفسى قد سكن من الفزع»[٢].

ولا شك أن وقائع الرؤيا التى قصها علينا الحكيم الترمذى، كانت بمثابة بشرى له تدخل الأمن إلى قلبه، وتشيع فيه الطمأنينة، لأنه فى طريقه يقفو خطى رسول الله ﷺ. ومادام الأمر كذلك فلا خوف عليه من إنكار الناس ولومهم.

ولايخفى أن هذه الرؤى فى حياة الحكيم كانت علامة ظاهرة على عمق التجربة الروحية وصدق صاحبها. ومن شأن هذه الرؤى أن تزيد صاحبها ثباتا وقوة على المضى فى الطريق فهى ذات تأثير مزدوج فى نفس السالك من حيث أنها تترجم له

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٦، الفقرة٣، «ختم الأولياء» ط بيروت.

(٢) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ الفقرة الرابعة.

عن الحقيقة، أو عما يجده فى أعماق نفسه بصورة صريحة أو بصورة رمزية، تبث فى نفسه الثقة بما حصل فى يده، أو بما وصل إليه، وتوحى إليه بما ينبغى أن يبذله من جهد أكبر، وبالمعالم التى ينبغى له أن يتبعها. ومما لاشك فيه أن هاتين الرؤيتين بذاتهما، ثم بمضمونهما، كانتا ذواتى تأثير كبير على الحكيم فى سلوكه طريقه، وفى مضيه قدما فى هذا الطريق[١]. واستمر الحكيم فى الطريق يأخذ نفسه بالرياضة والمجاهدة، ويؤثر العزلة والبعد عن الناس ولجأ إلى النجوى والدعاء، حتى أنس من نفسه قوة، واتضحت أمامه المعالم[٢]. ويقول فى هذا : «فدام لى شأن رياضة النفس، من تجنب الشهوات، وقعود فى البيت، على عزلة من الخلق، وطول نجوى من الدعاء، فانفتح لى شئ بعد شئ، ووجدت فى قلبى قوة وانتباها»[٣].

وحين وجد القوة والانتباه، ووضوح معالم الطريق، وسلامة السلوك، بحث عن أخوان يعاونونه الطريق، واتخذ لهم مجلسا يجتمعون فيه للتذاكر والمناظرة والدعاء والتضرع فى وقت الأسحار، ويقول فى ذلك:«وطلبت من يعيننى فكان يكون لنا اجتماع بالليالى، نتناظر ونتذاكر وندعو ونتضرع بالأسحار»[٤].

وكان طبيعيا أن يخوض الحكيم ومن معه فى أمور القلب، والذوق، والوجدان، ويتخلل حديثهم إشراقات وإشارات لايفهمها إلا ذوى الأذواق الخاصة، والمواجيد، ولاشك أن جانبا من هذه المذاكرات، والإشراقات، والإشارات، كان يتحدث بها بعض رواد المجلس فى الخارج، ويتناقلون مايدور بينهم، وينقلون عن الحكيم مايقولون.. ولم تنل هذه اللمحات الروحية القائمة على الذوق والرياضة رضا بعض الشيوخ الذين كانوا ينهجون فى فهم الدين وأوامره منهجا آخر يدور فى فلك الألفاظ وفهمها الظاهر[٥].

---

(١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩١.

(٢) راجع الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص ١٥.

(٣) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٧.

(٤) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٧.

(٥) راجع الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة» ص ١٦.

ويبدو أن هذه المجالس كانت تحفل بكثير من إشارات الصوفية، ولمحات العارفين فى أمور لم يألف الناس الخوض فيها أو تناولها على هذا النحو الذى يطلق فيه العنان لإشراق النفس، ونور القلب، فيلهم أهله فهما فى آية من كتاب الله، أو شرحا لحديث من أحاديث رسوله الكريم، أو تعليلا لأمر من الأمور التى كانت مجالا يخوض فيه الناس فى ذلك الوقت، وكانت مثار أخذ ورد بين العلماء الباحثين، وقد اختلفت نظرتهم إليها وحكمهم عليها، تبعا لاختلاف المنزع والمنهج والقدرة على الاستنتاج والحرية فيه، أو تبعا لارتباط الباحث بمنهج معين، والسير على منوال خاص لايحاد عنه فى تفسير الأمور وتعليلها[1].

وقد كان من نتائج هذا الاختلاف أن سعى الواشون بالحكيم ورأوا أن مايذكر فى مجالسه يعد انحرافا. لذا بدأوا يكيدون له.. ويصور ذلك الحكيم الترمذى فيقول: «فأصابنى غموم من طريق البهتان والسعايات وحمل ذلك على غير محمله، وكثرت القالة، وهان ذلك كله على، وسلط علىّ أشباه ممن ينتحلون العلم يؤذوننى ويرموننى بالهوى والبدعة وأنا فى طريقى ليلا ونهارا، دؤوبا دؤوبا »[2].

وقد يكون هذا الذى حدث اختبار لمدى الصدق فى السلوك، والثبات فى الطريق، فإن الصادقين المخلصين لايأبهون لما يلاقونه من أنواع الفتن والبلايا، ولاقصدهم عن الحقائق التى تكشفت لهم، افتراءات المفترين.. ولهذا لم يهتم الحكيم بهؤلاء.. بل ظل على حاله مستغرقا فى الطريق، لايتوقف ولايهدأ ولايستريح، والفتنة تزداد، والشائعات تنتشر. ويبدو أن موقف الحكيم السلبى، وعدم تصديه للرد عليها، جعل الفتن تقوى وتعنف، حتى وصل الأمر إلى والى بلخ، فأرسل محققا يبحث له هذا الأمر، وقدأتهم الحكيم لديه بأنه يتكلم فى الحب، ويفسد الناس، ويبتدع، ويدعى النبوة، وأقل هذه التهم ـ وهى تهمة الكلام فى الحب ـ كان كافيا لتبرير أقسى

(١) راجع الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وأفكاره» ص ٢٢ ، ٢٣..

(٢) الحكيم الترمذى « بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٧، تحقيق الدكتور عثمان يحيى.

العقوبات، ولعله بناء على ذلك قد أخرج إلى «بلخ» أو لعل والى «بلخ» طلبه إليه وهناك كتب عليه قباله أن لا يتكلم فى الحب»[١].

ويصور الحكيم هذه المحنة فيقول:«حتى اشتد البلاء، وسار الأمر إلى أن سعى بى إلى والى «بلخ»[٢] وورد البلاد من عنده من يبحث عن هذا الأمر، ورفع إليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب، ويفسد الناس، ويبتدع، ويدعى النبوة، وتقولوا على مالم يخطر ببالى قط، حتى صرت إلى «بلخ» وكتب على قباله أن لا أتكلم فى الحـــب»[٣].

واشتدت الحياة على الحكيم الترمذى، وأذته كثيرا هذه الاتهامات الباطلة، التى ألصقها به منتحلو العلم زورا وبهتانا، ولم يكن له بد من أن يتوارى عن الناس»[٤].

وهكذا تحددت إقامته فى منزله، وشوه أعداءه سمعته عند العامة حتى بلغ الأمر به أنه كان يرى السلامة فى البقاء بالمنزل، حتى لا يتعرض له أحد بسوء[٥].

ولا يخفى على أهل العلم من أن هذه المحنة التى تسبب فيها حساد الحكيم ومنافسوه، كان لها وقع مؤلم، دفع بالحكيم ألا يستطيع أن يطل برأسه، ولا يجترئ

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٢.

(٢) بلخ مدينة مشهورة فى العصور القديمة والعصور الوسطى فى إقليم خراسان« كانت سابقا القصبة السياسية لولاية خراسان ثم أصبحت المركز الثقافى والدينى لمملكة طخارستان، وفتحت المدينة فى عهد الإسلام أولا من قبل الاحنف بن قيس سنة ٣٢ للهجرة، ثم أعاد فتحها قيس بن الهيثم أو عبدالرحمن بن سمرة سنة ٤٣ هجرية ولعل والى بلخ الذى يشير إليه الترمذى هو يعقوب بن ليث أو عمرو بن ليث، والمعروف تاريخيا أن ولاة بلخ فى عهد العباسين كانوا جميعا امراء منحدرين من خطل وكان أحد هؤلاء الأمراء داود بن عباس البانيجورى قد طرده يعقوب بن ليث عام ٢٥٦ هـ وفى سنة ٢٨٦ هـ أسر إسماعيل بن أحمد عمرو بن ليث ومن ذلك الحين انتقلت المدينة إلى حكم الساسانيين، هامش ختم الأولياء ص١٧ ـ ١٨.

(٣) الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص١٧ ـ ١٨.

(٤) الدكتور الجيوشى «المسائل المكنونة» ص ١٥.

(٥) الدكتور الجيوشى «معرفة الأسرار» ص ١٣.

على شئ. يصف هذه المحنة بقوله: «كانوا صيروا السلطان والبلاد على بحال لا اجترئ أن أطلع رأسى»[1] ولذلك تركت لديه آثارا عميقة، وأعقبته عواقب بالغة، فقد أسقطت قدره عند الناس، كما أيسته منهم، وأحرقت حرارتها بقية رغبته فيهم، واعتباره لتقاليدهم وموازينهم، حتى أصبح أكثر قدرة على تذليل نفسه، وتمكنا من قسرها على فعل ما كانت تأبى فعله، وأداء ما كانت تكره أداءه.. وذلك لسقوط منزلتها عند الخلق وهوانها عند الناس، حتى وجد لذلك ـ مع وسمه بمظاهر ـ الذلة ـ حلاوة تصل إلى قلبه.[2].

ولقد كانت لهذه المحنة آثار بعيدة المدى عند الحكيم فقد عملت على تطهير قلبه، ومساعدته على المضى فى رياضة النفس ويقول فى ذلك:«وكان ذلك من الله ـ تبارك اسمه ـ سببا فى تطهيرى، فإن الغموم تطهر القلب.. فتواترت على الهموم حتى وجدت سبيلا إلى تذليل نفسى فكنت أراودها على أمور قبل ذلك من طريق الذلة، فتنفر ولاتطاوعنى، مثل ركوب الحمار فى السوق، والمشى حافيا فى الطرق، ولبس الثياب الدون وحمل شئ مما يحمله العبيد والفقراء، فيشتد على ذلك، فلما أصابتنى هذه المقالة والغموم، ذهبت شرة نفسى، فحملت عليها هذه الأشياء فذلت وأطاعت، حتى وصل إلى قلبى حلاوة تلك الذلة»[3].

وهكذا انتهز الحكيم فرصة هذه الشدة، ليحكم سيطرته على نفسه ويتم له إخضاعها وتذليلها، ويتخلص من شهواتها الكامنة، وأهوائها المتربصة. وهكذا فعل حتى أنه يحدثنا أنه كان يمشى حافيا فى الطرقات ويلبس الدون من الثياب، ويحمل مايحمله العبيد والفقراء، وكانت نفسه تأنف قبل ذلك أن تأتى هذه الأمور إلا أنه استطاع إخضاعها وترويضها وظلت هذه حاله من الاجتناب الكامل للشهوات،

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ٢١، فقرة رقم ٩، تحقيق الدكتور عثمان يحيى.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص١٩٣.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٨، فقرة رقم ٦.

والانشغال الكامل بالعبادات والخلوة الاختيارية التى تعززها عزلة إجبارية عن بقية الناس، اللهم إلا فئة قليلة من الأخوان تشاركه فى مشربه، ويجتمعون معا على الذكر، ويقضون فيه كثيرا من أوقات الليل[1].

ويبدو أن حلقات الذكر التى يلتقى فيها الحكيم الترمذى مع أخوانه الذاكرين لم يكن لها بيت معين من البيوت، وإنما كانت تقوم حسب رغبة كل واحد من الإخوان فى استضافة القوم، وليس هناك مايمنع من قبول أن هذه الاجتماعات كانت تتم فى بيوت الذاكرين بالتناوب والنص الذى تركه لنا الحكيم الترمذى يقول: «فبينما أنا كذلك إذ اجتمعنا ليلة على الذكر فى ضيافة لأخ من أخواننا».[2]

وخلال هذه الفترة المليئة بالمجاهدات والرياضيات، كان الحكيم يمر بكثير من التجارب الروحية العميقة التى يصعب علينا - كما يقول الدكتور بركة - إدراكها من الخارج، كما يصعب على صاحبها وصفها أو إيضاحها، ويقص علينا الحكيم قصة ظاهرة صوفية وقعت له، قد تكون غريبة على بعض الناس، ولكنها ليست غريبة على سالكى الطريق[3].

يقول الحكيم الترمذى - بعد أن ذكر لنا أنه اجتمع ليلة على الذكر فى ضيافة لأخ من الأخوان - «فلما مضى من الليل ما شاء الله رجعت إلى المنزل، فانفتح قلبى فى الطريق فتحا لا أقدر أن أصفه وكأنه وقع فى قلبى شئ، طابت له نفسى والتذت به، وفرحت حتى مررت فما استقبلنى شئ هبته، حتى أن الكلاب ينبحن فى وجهى، فآنس لنباحهن من لذة وجدت فى قلبى، حتى بدا لى أن السماء بكواكبها وقمرها صارت إلى قرب الأرض، وأنا فيما بين ذلك أدعو ربى، ووجدت كأن قلبى نصب فيه شئ، فإذا وجدت تلك الحلاوة التوى وتقبض بطنى والتوى بعضه على بعض، من شدة

---

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص ١٥، والدكتور بركة الحكيم الترمذى، جـ ١، ص١٩٣.
(٢) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٩، الفقرة رقم ٧.
(٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٢.

اللذة واعتصر، وانتشرت فى صلبى وعروقى تلك الحلاوة، وكان يخيل إلى أن قربى من مكان قرب العرش»[١].

يقول الدكتور عبدالفتاح بركة:«وهذه الظاهرة التى قصها علينا الحكيم هى حالة من حالات الوجد أو اللوامع الصوفية، تدلنا بكل وضوح على أن الترمذى استغرق فى حالة النشوة التى صادفته، ولكنه لم يفقد إدراكه العادى، فالكلاب تنبح فى وجهه، وهو يدرك أنها كلاب وأنها تنبح، وأن مثل ذلك يستوحش منه الإنسان.. ولكنه يقرر أنه قد أنس لنباح الكلاب، لما يفيض به قلبه من اللذة، وهو يدرك أن الكواكب والقمر والسماء كلها أجرام بعيدة جداً، إلا أنه لشدة ما حل فى قلبه من هذه اللوامع أحس كأنها ذاتية، قد صارت إلى قرب الأرض.. فالأشياء هى هى لم تتغير فى حسه، ولم يتغير وضعها فى نفسه.. ولكن قوة الوارد الروحى لم تتركه يتأثر بها التأثر العادى، لأن روحه ووجدانه متجهان اتجاها آخر غير هذا الاتجاه العادى[٢].

واستمر الحكيم على هذا السلوك حيث تخلص قلبه وتجرد من كل غاشية ويقول مشيرا إلى ماسبق:« فما زال ذلك دأبى كل ليلة إلى الصباح، أسهر ولا أجد نوما، فقوى قلبى على ذلك، وأنا متحير لا أدرى ما هذا إلا أنى ازددت قوة ونشاطا فيما كنت فيه»[٣].

وليس من شك فى أن هذه النصوص التى ذكرها الحكيم، قد زودتنا بألوان من المجاهدات التى أخذ الحكيم بها نفسه فى سلوكه حتى أسلمته إلى ماوصل إليه.. وقد بدا للحكيم فى خلال مجاهداته الرغبة فى تحصيل المعارف على اختلاف أنواعها، فاشتغل بتقدير شأن الزوال، وتعلم الحساب، من أمر البروج والاصطرلاب

---

(١) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٩، الفقرة رقم ٧.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٤.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٩، فقرة رقم ٧.

وماشاكل ذلك، حتى أخذ منه بقسط كبير، غير أنه انصرف عن المضى فى تحصيل هذه المعارف بسبب رؤيا رؤيت له تنصحه بترك الاشتغال بهذا النوع من العلوم خشية أن يؤثر ذلك على تقدمه الروحى، وسلوكه، ومجاهداته[١]..

وقد جاء فى كتاب «بدو شأن أبى عبدالله» : قول الحكيم: «ثم اشتغلت فى سنة من هذه السنين، بتقدير شأن الزوال، وتعلم تلك الحسابات، من أمر البروج والاصطرلاب، فأمعنت فيه، فرئى لى فى المنام، كأن قائلاً يقول له: قل لابن على ليس هذا الذى أنت فيه من شرطك ولا مذهبك، فاجتنبه.. قال : فامتلأت خوفا ورعبا مما رأيت من هيبة ذلك القائل، وأراه فى صورة شيخ أبيض الرأس واللحية، طيب الريح، حسن الوجه، أتوهم أنه ملك، فقال: قل لابن على ألق هذا فأنى لا أمن أن يكون هذا حجابا بينك وبين رب العزة، فالله الله فى نفسك فى هذا الخلق، فأنك لست بأذنيد.[٢] أنما أنت أمة فأخبره بهذا ولا تدع نصيحة الله فى خلقه»[٣].

وان المتتبع لفقرات كتاب «بدو شأن أبى عبدالله» الذى كتبه الحكيم الترمذى يجد أن سيرة سلوكية خاصة، حفلت بالرؤى التى كان يراها الحكيم أو يراها غيره له، وقد كان الحكيم يلتزم بهذه الرؤى فى مجاهداته وسلوكه.

والرؤيا عبارة عن إدراكات لروح النائم، تأتيها بغير الحواس الخمس المعروفة، عند إبطال هذه الحواس بالنوم، وطريق هذه الحواس هو ما يعبر عنه بالبصيرة، التى هى قوة للقلب منورة بنور القدس، منكشف حجابها بهداية الحق، ترى بها حقائق الأشيـاء وبواطنها[٤].

ولما كانت الرؤى ليست كلها بمثابة واحدة، وتتنوع إلى عدة أنواع فأنه يعنينا منها مايأتى بكشف، ويهدى إلى طريق.

---

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص١٤.

(٢) بأذنيد كلمة فارسية معناها: شئ حقير، أى أمر تافه لايساوى شئ.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن عبدالله» ص ٢٧، فقرة رقم ١٧.

(٤) الدكتور عبدالمنعم الحفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص ٣٥، ط دار المسرة، بيروت.

قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[١].

قال بعض المفسرين: يعنى الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو ترى له فى الدنيا[٢].

وقد وضع الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه كتابا سماه «كتاب الرؤيا» ذكر فيه ستة وعشرون حدثا فى موضوع الرؤيا[٣] مما يؤكد أمر الرؤيا، ويحقق منزلتها. وأن تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء إلى الله، والتقرب إليه كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية، تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات، ومعرفة لاتتأتى لذوى النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، وبالمادة عن الله[٤].

ويقول الإمام محمد عبده: أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية، من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس، بما يقارب تلك الحال، حال الاتصال فى النوع أو الجنس، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شئ من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال، لاتنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى النواقع، فهم لذلك يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف، ودليل صحة مايتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم، مما ينكره العقل الصحيح، أو يمجه الذوق السليم، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم، المتلألىء فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة[٥].

---

(١) سورة يونس، الآيات : ٦٢. ٦٣. ٦٤.

(٢) الشيخ عبدالغنى النابلسى «تعطير الأنام فى تفسير الأحلام» ص ٣ ط دار إحياء الكتب العربية، الحلبى.

(٣) الإمام مسلم «صحيح مسلم» جـ ٥، ص ١١٥، إلى ١٢٣، ط كتاب الشعب.

(٤) الدكتور عبدالحليم محمود «المنقذ من الضلال» ص ٣٤١، ط دار الكتاب اللبنانى.

(٥) الشيخ محمد عبده «رسالة التوحيد» ص ١٥٥، ١٥٦، ط كتاب الهلال، رمضان ١٣٨٢هـ.

المبحث الخامس

لماذا كان الترمذى حكيماً؟

إن الباحث فى ترجمة الحكيم الترمذى يجد أن أصحاب الطبقات والتراجم لقبوه بألقاب علمية كثيرة، وجميع هذه الألقاب تدلنا على مكانة الرجل عند العلماء وأهل المعرفة، كما أن هذه الألقاب تشير إلى عطائه فى العلم والسلوك والخلق والطريق، وقد عرف أهل الفضل هذا عن الحكيم فأطلقوا عليه ما أطلقوا من ألقاب، لها دلالتها وحقيقتها.

فالسبكى فى طبقات الشافعية ذكر عنه بأنه «المحدث الزاهد أبو عبدالله الحكيم الترمذى الصوفى صاحب التصانيف»[١].

والذهبى فى «تذكرة الحفاظ» قال عنه:«أنه الإمام الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف»[٢].

وابن حجر فى «لسان الميزان» ذكر من ألقابه :«المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبدالله»[٣].

«ومن الألقاب الملازمة التى لايكاد يذكر بدونها، والتى لاتطلق إلا عليه إذا ذكرت منفردة عن اسمه، فهى : الترمذى والحكيم معا ويختلف استعمالها تقديما وتأخيرا، بل يتغير وضع لقب الحكيم فى الاستعمال حيث تستعمل أحيانا قبل الاسم وأحيانا بعده»[٤].

---

(١) السبكى «طبقات الشافعية» جـ ٢، ص ٢٤٥.

(٢) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ ٢، ص ٦٤٥.

(٣) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٢، ص ٣٠٨

(٤) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٢.

أما لقب الترمذى فلأنه كان من عادة العلماء أن تنسب العالم إلى بلدته لعدة أغراض، منها: أمانة النقل، وتمييز المصادر، ونسبة الشئ إلى صاحبه الحق عند اشتباه الأسماء مع اختلاف البلدان، وعند توجه النقد بعد ذلك إلى سنده أو متنه، وغير ذلك من الأغراض العلمية التى لاتكاد تحتاج إلى تنبيه، ولم يثر هذا اللقب شيئا من المشاكل يلفت النظر إليه أو إلى البحث فيه(١).

أما تلقيب الترمذى بالحكيم، فهو أكثر الألقاب استعمالا، وأعظمها شيوعا وانتشارا، وقد حظى هذا اللقب بالبحث والدراسة عند بعض المهتمين بالدراسات العلمية.. فقالوا فى سبب تلقيب الترمذى بالحكيم «أن كان أكثر اهتمامه هو تبين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنسانى وربط بعض ذلك ببعض، وهو على ما يظهر كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئا من الطب»(٢).

وقالوا أيضا فى سبب تلقينه بالحكيم: «لأنه كان حريصاً على أن يجمع بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية وبين المنهج العقلى الذى وجد فى عصره»(٣).

وقالوا : «لأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية فكان بالتالى: المهد لمذهب العرفان فى التصوف الإسلامى»(٤).

ولاشك أن البحث العلمى يرفض القائلين بأن الحكيم الترمذى سمى حكيما لأنه بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية.. وهذا القول غير دقيق لأن الكندى المتوفى حوالى ٢٥٣ هـ، وأبا الهذيل العلاف المتوفى عام ٢٣٤هـ وإبراهيم النظام

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٢.

(٢) الحكيم الترمذى «كتاب الرياضة وأدب النفس» تحقيق الدكتور آربرى والدكتور على حسن عبدالقادر «المقدمة» ص ١٢-١٣.

(٣) الحكيم الترمذى «حقيقة الأدمية» تحقيق الحسينى، المقدمة ص ٧، مطبعة التجارة بالاسكندرية.

(٤) الحكيم الترمذى «ختم الأولياء» هامش ص ٤ مقدمة الدكتور عثمان يحيى.

المتوفى عام ٢٥٦ هـ، كانوا أول من تأثر بالفلسفة اليونانية فى عصرهم، ولقد أشارت المصادر إلى ذلك فضلا عن أن آرائهم ذاتها تؤكد ذلك التأثر، ومع ذلك فإن العلاف والنظام لم يلقب واحد منهما بلقب الحكيم، أما الكندى فهو وحده الذى لقب به بوصفه أول فلاسفة العرب والإسلام، وعلى ذلك فإن إرجاع تسمية الترمذى بالحكيم إلى ذلك السبب ليس صحيحا » [١].

ونجد كذلك أن تلقيب الترمذى بلقب الحكيم بسبب أنه كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئا من الطب.. نجد هذا الإرجاع بعيد، وذلك كما يذكر أحد العلماء:« أن الحكمة غير الطب، وأن الحكيم غير الطبيب، وقد يجتمعان فى فرد واحد باعتبارين لا باعتبار واحد. فالحكيم قد يكون طبيبا إذا تعلم الطب، فيدعى طبيبا كما يدعى حكيما، وقد لا يكون طبيبا إذا أهمل تعلم الطب وقد يكون الطبيب حكيما اذا أعد نفسه هذا الإعداد، وقد يكون خاليا من الحكمة إذا لم يكن لديه هذا الاستعداد، فلا يدعى بالحكيم وان دعى بالطبيب، على أنه يغلب على من جمع الطب والحكمة أن يلقب بأشرف اللقبين وهو الحكيم، فالجهة بينهما منفـكة »[٢].

«فالتلقيب بالحكمة لايحتمل التلقيب بالطب ضمنا إلا بقرينة من القرائن، كما إذا اشتهر بذلك أو عرف عنه، وقد يكون هذا هو السر فى أن كثيرا من المترجمين للفلاسفة يحرصون على وضع لقب الطبيب بجوار لقب الفيلسوف، عند ترجمتهم لمن يكون فيلسوفا وطبيبا معا، وذلك خوفا أن يتبادر إلى الذهن أنه كان فيلسوفا فحسب، وأنه لم يكن محصلا لصناعة الطب، وعلى ذلك فلا يمكن أن نستنتج أن تلقيب الترمذى بالحكيم كان بسبب معرفته بالطب إلا بقرينة، وذكر معرفته لأجزاء البدن لايصلح قرينة على ذلك اذ أن معرفة أجزاء البدن من المعارف العامة»[٣].

---

(١) الحكيم الترمذى «علم الأولياء» تحقيق الدكتور سامى نصر لطف المقدمة ص ٢٣.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٥٥.

ومن هنا كان تلقيب الترمذى بالحكيم يعود إلى أسباب أخرى غير الطب وغير الفلسفة الاغريقية، وقد جد الباحثون فى الوصول إلى معرفة هذه الأسباب.

ومحقق كتاب «علم الأولياء» للحكيم قد أرجع السبب فى ذلك إلى عدة عوامل، جاء فيها قوله:

١ ـ ولعلنا نرجع السبب فى ذلك إلى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفس الإنسانية، واستكناة باطنها لمعرفة علة مرضها، وكيفية معالجتها، وتلمسه العلاج فى أساليب فلسفية، وفى مفاهيم عقلية وروحانية كالتطهير والتأديب والتهذيب والرياضة الروحية والمجاهدة الذاتية.

٢ ـ كما أننا نرجح أن يكون الترمذى قد لقب بالحكيم لمنهجه فى الحديث عن الإنسان: مفهومه وكيفية خلقه، وتسويته وتقسيم أدوات معرفته بين حواس ظاهرة وأخرى باطنة. فقد كان حديث الترمذى عن الحواس الباطنة حديثا طريفا كل الطرافة وكانت معظم آرائه فيها أصيلة كل الأصالة حين قسمها إلى صدر وقلب وفؤاد ولب، وجعل لكل أداة من هذه الأدوات درجة من المعرفة ومرتبة من حيث اليقين والصدق..

٣ ـ وكذلك فإن تحليلاته الرائعة والعميقة للألفاظ والمصطلحات تدل على خبرة واسعة، ودراية شاملة بالأشياء وبالاسماء وبالمعانى.

٤ ـ ثم ان كثيرا من الأمثلة التى كان يسوقها الترمذى بقصد توضيح فكرة أو تبيسط رأى، إنما تدل على منحى تجريبى فى تفكير الترمذى، كما تدل أيضا على خبرة النفس الإنسانية، وعلى وعى بالعقل الإنسانى، وكيف أن الإنسان يفتقر دائما ـ فى تصديقه بمعظم الأشياء ـ إلى استدلالات وأمثلة من الواقع لكى يمكنه تصور الفكرة وتعقلها، ومن ثم الاعتقاد بها، فالتجريد كما نعلم يبدأ من

الواقع ويرتبط به ارتباط الكليات بالجزئيات التى استخلصت منها، وينتمى الواقع إلى الفكر انتماء الجزئى إلى الكلى.

٥ ـ ومما يمكن أن يضاف إلى أسباب تسمية الترمذى بالحكيم، تلك التقسيمات الطريفة للعلم وتقسيمه الحكمة إلى عليا ودنيا، ولعله قد وصل فى حياته إلى الحكمة العليا وحصل على هدفه الأسمى ومن هنا استحق أن يكون حكيما لاتساق آرائه مع هدفه منها ومع المنهج الموصل إلى تحقيق هذا الهدف[(١)].

والدكتور عثمان إسماعيل محقق كتاب «ختم الأولياء» يذكر فى هامش المقدمة: أنه يرى أن لقب الحكيم أسند إلى الترمذى خاصة لأن التعاليم الصوفية قد خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية ينفعل لها الصوفى فى جلوته، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته، بل حقائق موضوعية لها كيانها المستقل وعالمها الخاص، وحكمة الترمذى فى تصوفه تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية وفى هذا التصور الرائع لمناهج السلوك الروحى، وأخيرا فى هذا التمييز الحاسم بين أنماط الحكمة ودرجات المعرفة»[(٢)].

وقد يكون واحدا من هذه الأمور سببا فى تلقيب الترمذى بالحكيم وقد تكون كلها، وقد يضاف إليها غيرها، والذى يبدو واضحا لأهل العلم: أن المراد بحكمة الحكيم هو الحكمة الإسلامية التى انطلقت من القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ. .

وأصل مادة «الحكمة» موضوع لمنع يقصد به إصلاح، والحكمة العدل والعلم

---

(١) راجع الدكتور سامى نصر لطف مقدمة كتاب «علم الأولياء» ص ٢٣ـ ٢٤، ط مكتبة الحرية.

(٢) راجع الدكتور عثمان اسماعيل، مقدمة كتاب «ختم الأولياء» هامش ص ٥، ط بيروت.

والحلم والنبوة والقرآن وطاعة الله والفقه فى الدين والعمل به أو الخشية أو الفهم أو الورع أو العقل أو الإصابة فى القول والفعل والتفكر فى أمر الله واتباعه(١).

والحكمة تحقيق العلم واتقان العمل(٢)، ومعرفة آفات النفس والشيطان والرياضيات وقيل هى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به (٣).

والحكمة عند الحكيم الترمذى ـ حكمتان كما أن العلم علمان: علم بالله، وعلم بأمر الله، ولكل علم حكمة، والعلم ما ظهر، والحكمة ما بطن منه، وكما أن العلم علمان، فكذلك الحكمة حكمتان، حكمة من العلم به، وهى الحكمة العليا، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره وصنعته(٤).

فالعلم عند الترمذى هو معرفة ظواهر الأشياء والموجودات، أما الحكمة فهى العلم بجواهر الأشياء وحقائقها الداخلية(٥).

ومرتبة الحكمة عند الترمذى تعود إلى: «حكمة تتولد من كثرة التجارب، وحكمة تتولد من صفاء المعاملة، وهذه تدلك على الآخرة وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة وإنها الحق لأهلها، أعلاها وأجلها والتى تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيا وهى أدناها، والثانية على الآخرة، والثالثة على الجود والحق(٦).

والحكمة التى تتولد من القرب والمشاهدة هى المتصلة بالحق وهى الحكمة العليا «حيث انكشف كل غطاء دق أو جل، وخشعت النفس لله وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى، وفتح لهم من الحكمة العليا، قال جل جلاله وعظم شأنه، وتعالى كبرياؤه، وتقدست أسماؤه، وسمت كلماته سبحانه وبحمده ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(٧)

---

(١) انظر الفيروزبادى «بصائر ذوى التمييز» جـ٢، ص ٤٨٧، ٤٩١، ط المجلس الأعلى بالقاهرة.
(٢) راجع الشيرازى البيضاوى «أنوار التنزيل» ص ٥٩، ط الحلبى ١٣٧٥ هـ.
(٣) انظر الدكتور عبدالمنعم الحفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص ظ ،ط دار المسيرة بيروت.
(٤) الحكيم الترمذى «الكلام على معنى لا إله إلا الله أو شقاء العلل» ص ٣٣، ط مطبعة حسان.
(٥) الدكتور سامى نصر لطف «مقدمة كتاب علم الأولياء» ص ٨٣.
(٦) الحكيم الترمذى «معرفة الأسرار» ص ٨٤ ، ٨٥ تحقيق الدكتور الجيوشى، ط النهضة العربية.
(٧) سورة البقرة، الآية : ١٥١.

فالكتاب ظاهر القرآن، والحكمة باطنة، وهى التى يقال لها حكمة الحكمة وهى الحكمة العليا، فلما أتاهم من الحكمة العليا عاينوا مافى الملكوت بأبصار القلوب فصارت تلك المعاينة بصيرة للنفوس»[١]

فالحكمة مصطلح إسلامى أصيل، والحكيم إنسان أعطى ينابيع الحكمة وقد جاء الأصل السادس والثمانون والمائتان فى كتاب «نوادر الأصول للحكيم الترمذى» تحت عنوان «فى عثرة الحليم وتجربة الحكيم».

«فالحكمة من نور الجلال فإذا أعطى العبد انفجرت ينابيع الحكمة على قلبه، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه، فهى جاثمة متراكمة، ومالم يأخذه بالتجارب لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة لأن النفس بلهاء غنمية مشغولة بالشهوات فكيف تدرك الحكمة والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم»[٢].

ودلتنا أبحاث العلماء على «أن لقب الحكيم لايطلق على كل فرد بل يطلق على أفراد قلائل من البشر، فهو إذن من الألقاب الاصطلاحية التى تطلق لمعنى خاص يلاحظ فيمن تطلق عليه»[٣].

ولايخفى أن هذه المعانى الخاصة وجدت عند الحكيم ولذلك استحق هذا الاصطلاح الخاص، فقد كانت آيات القرآن الكريم والسنة النبوية ـ بشتى مادار حولهما وما جاء عنهما ولهما وبهما من معارف وعلوم ـ مصدرا أصيلا وخصبا لآرائه وحكمته وأقواله، وسلوكه وتصانيفه. كان مفكرا واسع العطاء، ومن ثم أطلق عليه الحكيم، ولقب الحكيم من الألقاب النادرة التى يحتاج من تطلق عليه إلى قدرات خاصة، وفتوحات إلهية ومواهب متعددة، ونحسب أن الحكيم الترمذى كان كذلك.

---

(١) الحكيم الترمذى «علم الأولياء» ص ١٣٩.

(٢) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٤١٥.

(٣) الدكتور بركة «الحكم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٦.